مستقبل الصين

ديانة الصينيين

يدين الصينيون بمذاهب مختلفة وعقائد متفرقة ولكنها في الواقع ترجع عندهم الى ثلاث ديانات الديانة الطاوية والديانة البوذية ومذهب كنفوشيوس حكيم الصين الاكبر. وتنفرد اديانهم عن غيرها بان كل دين في الارض ينفي سواهُ ولا يقبل المشاركة واذا دخل قلب امرئ طرد كل اعتقاد خارج عنهُ فلا يلتقي في قلب مؤمن بمكانين وان اديان اهل الصين لا يطرد بعضها بعضاً ولا ينقض اخيرٌ اوَّل بل تراها تمتزج وتتحد وتتساكن في قلوب مؤمنيها فيمكن ان يكون الانسان طاويًا وبوذيًا وتابعاً لكنفوشيوس في آنٍ واحد. وكأنها في هذا تحتمل شبهاً من امر الطرق والطرق المثل الاعلى فقد يعهد ان يكون الرجل شاذليًا ثم يأخذ طريقةً قادريةً او رفاعية او نقشبندية او غير ذلك ولا ينفي ذلك بعضهُ بعضاً لان جميعها ضمن دائرة الشريعة تؤدي الى مرامٍ واحد ومرمًى واحد وهو الاخلاص في ذات الله

على أن الغالب على عقول اهل الصين الاعتقاد بظاهر الكون ومجالي الطبيعة وهو اساس دينهم فهم يرون في جميع الحركات الطبيعية من عواصف وزلازل وامطار ورياح وتوالج برد ولوالج قيظ اختلاجات ارواح كامنة في الطبيعة كمون الماء في العود او النار في الجلمود. وعندهم ان كل ما يقع عليهِ نظرك من شجرٍ وحجرٍ وسهل وجبل وبحر ونهر وغير ذلك انما هو تجاويف واحناء استجنَّت بها ارواح واستكنَّت فيها جنَّان تتحرك بحركتها. فكل مادة تحركت فانما اختلج في داخلها الجن الكامن فيها. زعموا وان فوق هذا العالم الادنى عالماً علوياً من الجان والروح يملأ الفضاء ذاهباً جائياً وان الانسان نفسهُ فيهِ جزء من الالهانية ولكن بدرجة منحطة ونصيب يسير منها فاحتاج لضعفهِ ان يتقي غضب الارواح الاهية بما يقدمهُ من القرابين والضحايا وان يدرئ من دون نقمتها بدخان البخور وريح القتار لأن هذه الارواح على تسمين منها ما هو صالح ومنها ما هو شرّير وكل من الفريقين يعمل على شاكلتهِ

وقد امعن الصينيون في القول بالارواح المستكنة والجنان المستجنة حتى رتبوها عوالم وفصلوها اخذاذاً وقبائل وجعلوها طبقات متفاوتة فقيل ان تيان اي السماء هو المحيط بالارض والمنبث روحهُ في جميع اجزاء الطبيعة ينيرها باشعتهِ ويمدّ عليها جناح حرارتهِ. وهو الاله الاكبر وشيخ الجماعة ويسمّى شانغتي وقد بحث كثير من علماء الافرنجة في اصل هذه الكلمة

فعلموا ان اصل معناها "النهار" واجتهد بعضهم في اظهار نسبة بينها وبين لفظ الجلالة عندنا توصّلاً الى اثبات الوحدة في الاصل . وذهب بعض مرسلي الدين المسيحيّ في الصين الى ان شانغتي هذا هو الاله المعبود عند الساميين . وقيل ان بعض الباحثين عثر في كتب الصين على جميع العقائد النصرانية وزعم هايل ريموزا انهُ وجد اسم "يهوه" في كتاب "السلوك والفضيلة" من كتب الصين وردَّ غيرهم هذه المزاعم قائلاً انها اشبه بالخرافات وانها بعيدة التأويل صعبة المسلك وان هؤلاء لا يتبعون الاَّ الظن وان ديانة الصينيين مستقلة بذاتها نبتت ونمت في عقول الصينيين ومخيّلاتهم

ومن مزاعم علماء الصين ان للوجود علتين يدبران حركاته اولاهما يانغ وهي العلة المذكورة وتمثلها الشمس وايام ولايتها فصول القيظ من السنة وهي علة الخير والمير وبها حياة الزرع والضرع والانسان والنبات وكل نامٍ . والثانية ين وهي العلة المؤنثة ويمثلها القمر وايام ادارتها للارض فصول البرد . فالعلتان تتعاقبان على تخت الولاية وهذه الثانية هي علة الشرّ واثرها بريد الشؤم ورائد الهلاك : فالحرارة عندهم هي الحياة والبرودة هي الموت . وما اقرب ذلك للطب بل واللغة العربية فانهم قالوا بردَ الرجل يبرد برداً مات قال صاحب اللسان وهو صحيح في الاشتقاق لانهُ عدم حرارة الروح . وفي حديث عمر فهُبرهُ بالسيف حتى برد اي مات . قال الصينيون وبامتزاج هذين العنصرين الشمس والقمر يلد كل شيء وينمو كل شيء

ومن ظنونهم ان ارواح الموتى هائمة في الفضاء تطوف بيوت الاحياء ولا تزال تؤثر في احوالهم المعاشية وتعمل في مصاير امورهم . ويقولون بثلاث انفس في الانسان الواحد الروح العقلية ومركزها الدماغ والروح الحسية ومقرها الصدر والروح المادية ومحلها البطن . فاذا مات الانسان او على رأيهم بَرَد سكنت الروح الاولى مواطن التذكار وسكنت الثانية القبر وافلتت الثالثة بلا قيد فكانت ذات خطر جسيم وشرّ مستويل . وربما حاولت المجاز الى اجسام أُخر وربما تهافتت على استار الاجساد تهددها بالاختراق . واذا قصر اهل هذه الروح في العبادة كانت عليهم وبالاً واشد الارواح خطرًا ارواح الاطفال لأنها كانت ناقصة عند الانفصال والغالب عليها الطيش كما لا يخفى فجدير ان لا تؤمن غوائلها ولا يُسترسل الى نواحيها . ولهذا جرت العادة بايقاد العود عند مداخل البيوت حجاباً على الابواب من دون هذه الارواح

ومما يهمُّ الصينيّ كثيرًا اختيار مدفنهِ والتحري في امر المقابر فان روح الميت بزعمهم ان كانت متأثرة من شيء انتقمت من اهلها ولو كانوا ابرارًا فجرت لهم النكبات والمصائب لم يشفع لهم برّهم ولا نفعتهم تقواهم . ألا وان الارواح ترفرف مثل الغمام المتولي وتذهب مثل الضباب

المولي فلاجل تسهيل طروق اخيارها وسد الطرق والثنيات على اشرارها لزم التأنق في بناء القبور والبيوت واتقان فتح السكك وحفر الترع ونحت المعادن وإنهاء الآبار . واذا حصلت بعد هذا كله عظائم وامور أُنحي باللوائم على معلمي الديانة ومرشدي سبلها الذين لم يعلموا جيدًا اسباب التدارك ووسائل الاتقاء وهم معذورون في هذا العجز لأن التعنت ظاهر من حركاتها . وكثيرًا ما تضطر الحكومة الى ردم آبار وحفر لان الاهالي شكت من اضرارها بالمزروعات لكونها اصبحت مأوى للارواح الخبيثة وافسدت بذلك الزرع والضرع . بل ربما قامت الدعاوى وتكونت الخصومات بين الجيران بسبب تغيير وقع في هيئة الارض فحدث منهُ مسرب للارواح لم يكن من قبل اذ قلما تظهر حفرة في ارض الا جاءت تروح والدبنت فيها فصارت رصدًا على ما حواليها . وعليهِ يلزم ان يكون هناك ربان سماوي ماهر يدير سكان تلك السفينة الجوية حسبما تقتضيهِ المصلحة ويتقي عواصف اهوائها بصنوف الحيل ويسيرها ما امكن نحو الخير ولذلك قد يبنون الابراج و يغرسون الاشجار وقاية من الارواح الخبيثة فكم جنة هي جُنة وكم بستان هو صوان .

وريح الشمال هي الهابة بالارواح الشريرة حال كون الريح الجنوبية هي ريح الصالحين فاليمين افضل من الشمال في كل الدنيا . ثم ان لطيف المنحنيات والالواء والمتعظفات المتعرجة تدر يحًا والاودية والانهار كلها منازل الارواح الصالحة بخلاف المتعرجات البتراء والاشكال المنقطعة والخطوط المستقيمة الذاهبة صدًا فانها ملجأ لأرواح ليس عندها شيء من الاستقامة . واليُمن كل اليمن في الحركات الملتوية ليًا خفيفًا كحركة الريح او الماء . ويقال لهذا المذهب فنغ شوي اي الماء والهواء واصحابهُ يُعنَون باستعطاف الارواح المائية والهوائية . وفي الحق انهُ مذهب هوائي وان عليهِ رقة الماء غير انهُ ينطبق على قوانين الصحة فاهلهُ يحمدون رأيهم الاطباء من الانكليز في الولوع بغرس الاشجار تنقية للهواء واستدرارًا لاخلاف السحاب وفي مقابلة ذلك يكرهون المهندسين عملة الخطوط وحفرة الحفائر . وكان من جملة اسباب منع السكك الحديدية في الصين تخوُّف الاهالي من خطوطها وهذه الخرافات لحالة كونها ليست بديانة الصين الرسمية فإن لها عند عامة الصين شأنًا عظيمًا يفوق الرسميّ والشبيه بالرسميّ . وهذا غير عجيب لانهُ لا يوجد بقعة على وجه الارض الا وعامة أهلها متمسكون من الدين بالخرافات ومهملون اللباب . فإن العامة لاعقل لهم ودين المرء على قدر عقلهِ . ومن المرويّ عنهُ صلى الله عليهِ وسلم " الدين العقل فمن لا عقل لهُ لا دين لهُ " . ولقد تمسك الصينيون بهذه الاباطيل وهذه المضحكات ونبذوا اقوال لاوتز مؤسس ديانتهم على ما فيها من التوجه

الى الحقيقة وانكار هذه الارواح الهائمة في الفضاء الحائمة فوق رؤوس الاحياء . وعنده ان الكون المنظور ليس سوى مظهر الهة السامية التي تدرك ولا تدرَك واسمها طاو اي طريق النجاة

ثم افسد الكهنة هذه الديانة كما افسد غيرهم غيرها وخلطوها بالسحر والطلسمات ونزلوا بها الى حضيض الفتيشية وقالوا بالموائد الدائرة والارواح النجسة والتنجيم والعرافة والكهانة وما اشبه ذلك من سفاسف الاقوال . وعضوا على هذه الامور بالنواجذ . فالحكومة لا تزال تحترم هذا المذهب محافظة على رضى العامة العمياء . وهي تجري على رئيسه الذي يزعم انهُ من سلالة لاوتز رزقاً سنوياً وهو يوزع في الآفاق الصينية نوعاً من التمائم والتعاويذ في قراطيس خضر وحمر لاجل ان يتقي بها الناس الشرور والآفات

وحيث كما قدمنا غلب على ظن الصينيين انهم محفوفون من كل الجهات بالارواح والجنّان كانوا يسعون ابداً في اتقاء غضبهم وصرف صواعق نقمهم بقضبان القرابين وبالصلوات والنذور وجرت العادة ان يقوم بذلك عندهم رئيس العشيرة او العترة او شيخ البلد او مقدّم القوم فهو ينوب في هذا الامر عن الباقين . ولا يفيد هذا وجود واسطة عندهم بين العابد والمعبود وان هناك فئة من الكهنة لهم وحدهم حق التقديس كلاً وانما اعتقدوا كون الالهة انفسها طبقات بعضها فوق بعض ولاجل مراعاة النظير جعلوا الامة طبقات ايضاً وناطوا بكل طبقة من الامة معاملة طبقة من الالهة فالكبير عامل للكبير والاوسط للاوسط والاصغر للاصغر وللسلطان الامتياز بتقديم القربان للاله " السماء " وللارض والجبال التسعة والانهار الصينية العظمى ولا حق لامراء الصين التطاولُ الى مخاطبة هذه الطبقة فقد اختصت بها المخاطبات السلطانية وانما يقرّبون لطبقة ادنى من تلك وللجانّ الساكن في المحل كما ان العامة يعكفون على الحجر والشجر والحشائش وسائر الخسائس . ولما كانت الديانة عندهم من جملة دوائر الحكومة فالحكومة هي التي ترتّب هذه المراتب وتسنّ قوانين للتديُّن وسائر الشعائر

ولقد عُبِدَت في الصين الضحايا البشرية من جملة القربات لكن غالب هذا الاصطلاح كان عند امة المغول وكان كثير من اتباع الملوك يدفنون انفسهم مع الملك المتوفى ولما مات هوانغتي قبل المسيح بنحو قرنين نزل معهُ الى القبر كثير من نسائه وحرسه ودفن عشرة آلاف رجل من الاحياء حول ضريحه وكان لم يزل اثر لهذه العادة الباطلة في بعض الاصقاع النائية من الصين وكثير من النساء يلقين باطفالهنّ في الانهر قربةً وزلفى للالهة فبلغ احد الولاة عن بعض الآباء والامهات انهم يفعلون هذا الفعل الفظيع فامر بالقائهم جميعاً في نهر الكيانغ فكان جزاؤهُ من جنس عملهم . وقد عزي الفضل لكنفوشيوس ومريديه في ابطال هذه

المنازع الذميمة في العبادة ولكن لاشك انها كانت قد ضعفت من قبل كنفوشيوس وانما هو نسخها تماماً على ان الحكيم شديد الاستمساك بالعوائد الدينية القديمة ما عدا هذه العادة بل الدين كلهُ عندهُ عبارة عن حفظ القديم . ولم يكن خوارق الطبيعة والمعجزات والوحي شأن عند كنفوشيوس بل هو بعيد عنها كلها ومن جملة اقوالهِ "كيف يمكننا ان نعلم ما يجري في السماء ونحن نجهل حقيقة ما هو واقع على الارض" ويروى انهُ قال لاحد تلاميذهِ وقد سألهُ عن الآخرة "انت لم تعلم الى الآن كيف تعيش في هذه الدنيا فكيف تسأل عما تصير اليهِ بعد موتك" . وما كانت مقالة كنفوشيوس الاَّ عبارة عن واجبات الانسان نحو آبائهِ وابنائهِ وبني جلدتهِ ودولتهِ وان الديانة يجب ان تهمهُ من جهة كونها من جملة اوضاع الدولة . وكان من اهل الاعتدال في افكارهِ والقصد في مشيهِ والحشمة في سلوكهِ والسذاجة في احوالهِ الخاصة حتى استحق من محابّ قومهِ وحرماتهم ما صيَّرهُ اول انسانٍ عندهم . ولو سألت عن دين كنفوشيوس لم تجدهُ سوى محبة اتباعهِ لهُ فكأن اتباعهُ ينظرون الى قول الامام عليّ رضي الله عنهُ "محبة العلماء دينٌ يُدان بهِ"

ومع شدة شغف القوم بكنفوشيوس واجلالهم لقدرهِ وتواتر القرون بعد القرون على ذكرهِ مقدَّس واحدوثة فائقة وحب زائد وجلالة مؤثَّلة لم يرفعوهُ الى صف الآلهة ولا نسبوا اليهِ معجزة ولا خارقاً لطبيعة . وكان مضى على وفاتهِ اربعمائة سنة عند ما اطلقوا عليهِ لقب كونغ بثابة دوق عند الافرنج ثم مضت اربعة قرون اخرى حتى لُقب بالمقدس الاول ولم يُعلن عندهم انهُ اقدس واحكم وافضل شارع على وجه الارض الاَّ في دولة مينغ المتأخرة

وترى في جميع بلاد الصين مشاهد لكنفوشيوس بنتابها الذين لا تنتهي لهم زيارة قبرهِ الحقيقيّ فيقال ان لهُ الفاً وستّ مئة هيكل . ولما امر الامبراطور هوانغتي بحرق كتب الاولين حسداً وبغياً وكان من جملتها كتاب الشوكينغ الذي جمعهُ كنفوشيوس بلغ عدد الذين احرقوا انفسهم وراء هذا الكتاب اربعمائة وستين رجلاً . فليتأمل البشر في عقول البشر

ومن الاديان السائدة في الصين الديانة البوذية ولم تبعد هذه عن اصلها بمقدار الديانة الطاوية ولكنها بالنظر لكونها بدأت في الصين غريبةً لم تخلُ من كونها اختلطت بكثير من عقائد الصينيين مثل قضايا الارواح والجنّان والاصداء والهام فقد لقيت البوذية لدن اول دخولها من كهنة الطاوية واتباع الحكيم مقاومة شديدة فتسابق لهم دعاتها من الهنود بكثير من عقائدهم ورضخوا لهم على ادخال ذلك في البوذية فكثرت اتباع هذه الديانة وعرفها سلطان الصين بعد دخولها الى تلك البلاد بثلاثة قرون . وكيفية ما تساهل بهِ البوذيون مع الصينيين

انهم جعلوا لهم ارواح الرياح والمياه واعاظم الرجال وغير ذلك من جملة مقامات بوذا فاوجدوا في مذهبهم ما يفي باغراض الجميع . فاهل العلم والعرفان يحجبهم من مذهب بوذا مناهجهُ العقلية والعامة يميلون اليهِ لما فيهِ من الاحتفالات والزيارات والطواف وما يمنّيهم اياهُ من انتهاء شقائهم في الدار الآخرة . والكتب المتداولة من مذهب بوذا في الصين ليست هي الكتب الشائعة عند المغول وعند اهل التبّت بل الكتب الملائمة لذوق الصينيين المنطبقة على مشاربهم . وسبحان الله فكأن الدين يتلوّن بلون البلاد التي يدخلها تلوّن الشراب بلون الاناء . واحب كتب بوذا الى الصينيين كتاب " النيلوفر الابيض " وهو مجموع مواعظ وتعازي وجمل رقيقة . واحب فرق البوذية عندهم فرقة (كوانين) وهي امرأة كانت من تلاميذ بوذا لم يكن فيهم امرأة غيرها وقد آل امرها في الآخر الى ان صارت الهة الرحمة وهي ملجأ الامهات العُقم وموئل النواتية الذين تثور عليهم العواصف . وهم يصورونها والطفل بين ذراعيها

وكان معظم استفحال مذهب بوذا بين القرن السادس والقرن الحادي عشر للمسيح وفي هذه البرهة بلغ التحمّس بهذه الديانة مبلغهُ وترجم من السنسكريت الى الصينيّ لا اقل من ١٥٠٠ كتاب وبنيت لبوذا الهياكل والابراج في كل ديار الصين . وهياكلهم طبقات خمس او سبع او تسع او احدى عشرة او ثلاث عشرة لأن اديان الشرق كاديان الغرب تؤثر العدد بالمفرد على الزوج ولهذه الهياكل الاجراس والنواقيس كما للكنائس . وفي الغالب يوجهون ابوابها الى الجنوب الاّ اذا كان ثمة جبل او نهر فتوجه نحو الجبل او النهر . والشعائر الدينية هي القرابين والاناشيد والركوع والسجود والطواف واذا طافوا انشدوا على التوالي أُوسى توفو أُمي بوذا

على ان هذا التحمّس بمذهب بوذا قد خمدت جذوتهُ في ديار الصين وتداعى اكثر تلك الهياكل الى الخراب فهي خاوية على عروشها وقد زهدت الحكومة الصينية فيهِ وصرفت انظار الناس عنهُ بقدر ما استطاعت ولكنهُ لا يزال ذا تبع كثير تحت تلك السماء وقد يجمعونهُ كما قلنا الى مذهب طاو والى طريقة كنفوشيوس لأن كثيرين من اهل الصين يقولون " الاديان الثلاثة دين واحد " . وطالما اشترك كهنة المذاهب الثلاثة في اقامة الشعائر الدينية كانهم خدمة دين واحد وهم يقولون ان مذهب كنفوشيوس يتكفل لهم بعلم آدابهم ومذهب طاو بحفظ كيانهم ومذهب بوذا باعلاء درجة افكارهم

وانما كان مركز الديانة البوذية ومضرب عصاتها بلاد التبت فان " لاسا " قاعدة هذه البلاد هي " رومة " البوذية وقبلة جميع اتباع بوذا من جميع آفاق الصين واليها يحجّ وفودهم واليها تهوى افئدتهم ويسمونها " كرسيّ الله " والمغول يقولون " الحرم المؤبّد " وفيها المحل

المسمى بجبل بوذا وفيها عشرون الف راهب ومعظم شغل سكانها العبادة فمتى مالت الشمس للمغيب ترك الناس جميع ما هم فيهِ وتجمَّعوا على السطوح وفي الساحات والجواد جماهير يصلّون ويسجدون فارتفعت لذلك الاصوات من جميع انحاء المدينة

ومن جملة الاديان المعروفة في الصين الديانة اليهودية واتباعها قليلون وكثير من الصينيين يظنونهم فرقة من اهل الاسلام ويسمونهم المسلمين الزُرق لان احبارهم يلبسون قلانس زرقاء ويحذون نعالاً زرقاء ويقال لهم ايضاً "مقطعو العروق" بسبب عادتهم ذبح الشياه لاجل طعامهم. وكانوا في الماضي اوفر عدداً من اليوم فكان منهم في باكين ونانكين وتينغبو فلم يبقَ منهم الا شرذمة في كيفون قاعدة هونان والسبب في ذلك ان الجم الغفير منهم دخلوا في الاسلام ومنهم من صبا الى ديانات الصينيين والباقون منهم على الموسوية لا يتكلمون الاَّ بالصيني واحبارهم اصبحوا لا يعرفون من العبرى الاَّ قليلاً وهم يزعمون انهم طرقوا الصين من قبل المسيح بقرنين الى ما بعده بقرنين اما سيّاح الاوربيين فيظنون جلاءهم الى هناك على اثر خراب البيت المقدس وانقراض ملكهم فيهِ. ولما دخل اليهود الاوربيون بينهم بقصد تعليمهم وجدوهم جاهلين بالمرة اصلهم ولغتهم بل وجدوهم كما قال احد سياح الانكليز في تقرير للجمعية اليهودية الانكليزية سنة ١٨٧٩ "قد ولّوا وجوههم شطري مكة والمدينة"

ومن الاديان التي عرفها اهل الصين من عهد بعيد الديانة النصرانية فقد كان في بلاد الصين من النساطرة امم لا تكاد تحصى كثرة تشهد بذلك التواريخ وتنطق الآثار وسنة ١٦٢٨ عثر على حجر بقرب سنغان فو عليهِ كتابة تفيد ان داعياً سورياً اسمهُ اولبون دخل بلاد الصين سنة ٦٣٥ ومعهُ التصاوير والكتب المقدسة ولثلاث سنوات من وصوله حصل على الاذن ببناء كنيسة في سنغان ثم انتشرت هذه الديانة وصار لها اتباع في جميع الولايات ونكب اهلها خصوصاً في القرن السابع ولم يمنع ذلك ازديادهم ولما دخل ماركو بولو السائح الايطالي وجد منهم طوائف وافرة خصوصاً في الجهات الشمالية. وقال ابن بطوطة عند ذكر مدينة الخنساء العظمى وكونها ست مدن كبار "ان المدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك" ومن هنا تعلم وجود النصارى هناك في ذلك العهد

ولا يخفى ان النصرانية دخلت في دولة جنكيز خان امير الايغور والخطا والمغول. وجنكيز نفسهُ وإن لم يتنصر فقد كان محباً للنصارى مكرماً لهم وقال ابو الفرج الملطي في مختصر الدول: وكان بمقام الاتابكية لكيوك خان امير كبير اسمهُ قداق وكان معمَّداً مؤمناً بالمسيح وشاركهُ في ذلك امير آخر اسمهُ جنيقاي فهذان احسنا النظر الى النصارى وحسنا يقين كيوك خان ووالدته

واهل بيته بالمطارنة والاساقفة والرهابين فصارت الدولة مسيحية وارتفع شأن الطوائف المنتمية الى هذا المذهب من الفرنج والروس والسريان والارمن والتزم الخاص والعام من المغول ان يقولوا في السلام (برخمر) وهو لفظ سرياني معناهُ بارك مالكي

ثم تلاشت النسطورية من الصين ودخل جميع اتباعها من او يغور وتتر وطوائف اخرى في الاسلام . ومؤرخو الاوربيين يظنون وقوع ذلك لعهد تمرلنك قال اليزه ركلوس ونظن ان ذرية هؤلاء البساطرة هم الدونغان المسلمون الذين كادوا يسقطون عرش مملكة الصين في ثورتهم الاخيرة . على انهُ ما غاب مذهب نسطور من هناك حتى تجدد للنصارى على يد الكثلكة شأن في الصين ففي القرن الثالث عشر صار مونتكورفينو مطراناً على باكين وشاد هناك الكنائس . وسنة ١٥٨١ دخل راهب يسوعي اسمهُ روجيرو وتبعهُ دعاة أُخر واستمالوا بجهدهم وحسن مدخلهم كثيرين من رجال الدولة والكبراء الى الديانة المسيحية قال بعضهم ان هؤلاء بحسن سياستهم تنكبوا طريق الطعن في اديان الصين القديمة خشية تنفير الناس منهم فجاء الرهبان الدومينيكيون في القرن السابع عشر وخطَّأوا الاولين في سياستهم فنشأت عن ذلك مناظرة في الدعوة وجاءت براءة من البابا اكليمنضوس الحادي عشر سنة ١٧١٥ مؤيدة لطريقة الدومينيكيين . هذا ما رواهُ بعضهم والعهدة فيهِ على راويهِ . ولما جرى منع النصارى الجدد من ممارسة شعائر الصين القديمة ضعف شأن التنصير بالنسبة الى الاول وسنة ١٨٧٦ كان دعاة الكاثوليكية نحو ثلاثمائة ومعهم جم من نصارى الصينيين انفسهم وقدر اتباعهم لذلك العهد بخمسمائة الف نسمة وان عدد المتنصرة يزداد كل عام نحو الفين واكثر ما يقع التنصير في المجاعات فان الدعاة يأخذون مئات من الاطفال ويربونهم في حجر الدين المسيحي فينشأون نصارى

واما الدعوة البروتستانية فجاءت متأخرة اذ لم تكن معروفة قبل سنة ١٨٤٢ وانحصرت اعمالها في الموانئ الخمسة التي فتحتها للتجارة معاهدة نانكين . ومن سنة ١٨٦٠ فصاعداً وصلت الدعوة الى سائر الجهات ما عدا التبت والتركستان الشرقي وقد وطئ دعاة المذهب البروتستاني بلاد المغول ومنشوريا وبنوا عشرين بيمارستاناً وثلاثمائة وخمسين مدرسة فيها سبعة آلاف وخمسمائة طالب . وكان عدد بروتستان الصين منذ نحو عشرين سنة خمسين الف نسمة وقد ازدادوا الآن زيادة مهمة ولكن يقول بعض السياح ان حرب الافيون اضرت بنجاح الدعوة لأن اكثر مرسلي هذه الفرقة هم من الانكليز وحرب الافيون كرَّهت الانكليز الى الصينيين وبالاجمال تجد تجار الاوربيين يضرون بفوز ديانة الاوربيين ولذلك يحترز الدعاة من

مخالطة ابناء جلدتهم المتنصرة الصينيين حرصاً على اخلاقهم وللتباين الواقع بين قواعد الدين المسيحي وافعال الجالية الى هناك من اهله واذا اردت ان تعرف ذلك فانظر الى الامر الامبراطوري الصادر مرة في جريدة باكين الرسمية بشأن الاوربيين وهو " ان فئتين من الاجانب تدّعيان اصلاح امور الصين احداهما تأمرنا بمحبة القريب كانفسنا والثانية تعلّمنا كيفية قتله من مسافة بعيدة بدون حرج علينا وتبيعنا بنادقها المتقنة لكيفية القتل "

هذا وقد زعم بعضهم ان منشأ فتنة البوكسر الاخيرة التي آلت الى الحرب الحاضرة هو من امعان المرسلين في بثّ دعوتهم وقد شوهد ان الذين اهتضموا ونُكبوا في هذه الفتنة اكثر من الجميع هم الصينيون المتنصرون والصحيح ان هذا هو من جملة اسباب الثورة وليس كلها. هذا ما عنّ لنا ذكره بشأن الاديان المختلفة في الصين على وجه الاختصار وقد ابقينا الكلام على الاسلام الى المرة الآتية

شكيب ارسلان

عمران دمشق

في خلافة بني العباس

انتقل الملك الى بني العباس سنة ١٣٢ هـ فلم يميزوا بغداد عن دمشق في شيء الاّ ان طبيعة الملك وقرب دار السلام من خراسان منبعث دولتهم ومنبثق دعوتهم دعياهم الى اختيارها على علاّتها عاصمة لسلطانهم على انهم كانوا يعدّون البلاد كلها لهم لا فرق بين دار ملكهم واصغر قرية منهُ . ولذا عرفت دمشق في ايامهم طعم العدل وذاقت حلاوة العمران حتى كان المسافر بينها وبين بغداد يقطع المسافة تحت ظلال الاشجار آمناً في سيرهِ

روى ابن عساكر ان ملوك بني العباس لم يزالوا يختارون الى دمشق طلباً للصحة وحب المنظر منهم المأمون فانهُ اقام بها واجرى اليها قناة من نهر مَنين في سفح جبلها الى معسكرهِ بدير مرّان وبنى القبّة التي في اعلا الجبل وصيّرها مرقباً يُوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى ما في عسكرهِ فاذا جنّ عليهِ الليل كان ضوءها الى ثنيّة العُقاب[1] والى جبل الثلج

(١) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى حمص قال احمد بن يحيى بن جابرة وغيرهُ من اهل السير سار خالد بن الوليد من العراق حتى اتى مرج راهط فاغار على غسان في يوم فصحهم ثم سار الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب المطلة على غوطة دمشق فوقف عليها ساعة ناشرًا رايته وهي راية كانت لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم فكانت تسمى العقاب علماً لها ويقال انها سميت ثنية العقاب لعقاب من الطير كان ساقطاً عليها بعشهِ وفراخهِ